المحاضرة الرابعة:

غريب القرآن مفهومه والفائدة من وجوده ومنهج العلماء في ترتيبه.

:Fourth Lecture

The strange concept of the Qur'an, the benefit of its existence, and the method of the scholars in arranging it.

مفهوم الغريب لغة واصطلاحاً:

لغة: يقال غَرُب الكلام غرابة: غمض وخفي، فهو غريب والجمع غرباء، وهي غريبة، والجمع: غرائب ، والغريب: غير المعروف والمألوف كما في الوسيط (1).

اصطلاحا: ما احتاج إلى البيان أو إلى مزيد منه من ألفاظ القرآن الكريم أو غيره.

وليس المقصود هنا الغرابة بالمعنى الذى عده علماء البلاغة عيبا مخلا بفصاحة الكلمة ذاهبا بفصاحة وبلاغة ما يشتمل عليه من كلام ، والذى عرفوه بكون الكلمة وحشية غير ظاهرة المعنى، بحيث لا ينتقل ذهن العربى الخالص العروبة إلى معناها بسهولة، أو كونها غير مأنوسة الاستعمال في المعنى المراد منها لدى خلص العرب ، بحيث يحتاج تخريج الأمر فيها إلى وجه بعيد(2)؛ لأن فصاحة الكلام فضلا عن بلاغته متوقفة لا محالة على فصاحة كل كلمة منه ،والقرآن الكريم قد انتهى من البلاغة إلى حد الإعجاز.

وفى ذلك يقول السعد التفتازانى -يرحمه الله-مدافعا عن اشتمال القرآن على كلمات غير فصيحة فيقول فمجرد اشتمال القرآن على كلام غير فصيح ، بل على كلمة غير فصيحة إنما يقود إلى نسبة الجهل أو العجز إلى الله ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا(3).

وترتيبا على ما سبق لا يصح بحال ما رواه المتساهلون من الأخبار المؤذنة بجهالة الجماهير من الصحابة لمعانى بعض ألفاظ القرآن ، لأنهم عرب خلص ، وما كانت لتفوت الحمية العربية ولا سيما لدى أهلها أعداء الدين والقرآن فى عصره مطعنا يوجهونه إلى القرآن فى مقتل.

نعم قد يجر العجل الذى خلق منه الإنسان إلى عدم تبصر فى سياق أو تدبر فى قرينة تستوجب الحمل على مجاز، فيقع خطأ الفهم من بعضهم حتى يستبين النبى ﷺ فيبينه له ،كقصة عدى بن حاتم في الخيط الأبيض والأسود(4)

هي الألفاظ التي يخفى معناها ويدق على العامة دون الخاصة، وذلك في بيئة معينة بسبب وفودها من بيئة مكانية غريبة، أو بسبب استعمالها في غير المعنى الذي وضعت له.

وفي القرآن الكريم إشارات على أن غريب القرآن قد عاصر التنزيل.

وليس ذلك ببعيد ولا مستغرب فإن القرآن نزل بلهجات مختلفات، كل لهجة وفدت من بيئة مخالفة للأخرى.
فمن إشارات القرآن قوله تعالى:
وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم [النحل: 44]، وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذي اختلفوا فيه [النحل: 64].
وهذه بعض الشواهد التاريخية على ذلك:
1 – أعرابي يسأل رسول الله ﷺ عن معنى الظلم في قوله تعالى: ولم يلبسوا إيمانهم بظلم [الأنعام: 82]، ففسره النبي ﷺ بالشرك مستدلا بقوله تعالى: إن الشرك لظلم عظيم [لقمان: 13].
2 – كما سئل أبو بكر عن قوله تعالى: وفاكهة وأبا [عبس: 31]، فقال: أي سماء تظلني وأي أرض تقلني إن أنا قلت في كتاب الله ما لا أعلم.
3 – وعن ابن عباس قال: كنت لا أدري ما فاطر السماوات [الأنعام: 14] حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر، فقال أحدهما: أنا فطرتها، أي ابتدأتها.
ولقد كان ابن عباس هذا ترجمان القرآن الكريم وصاحب مدرسة سامقة في تفسير وتأويل القرآن، فلقد توسع في تفسير غريب القرآن مستدلا عليه بديوان العرب الشعر. ومسائله مع نافع بن الأزرق معلومة مشتهرة.
* ومما يذكر في هذا المقام أن دائرة الغريب تتسع من عصر إلى عصر بسبب ضعف ملكة البيان واستعجام اللسان، كما أن الاتصال باللغة العربية لغة القرآن الكريم هذه الأيام اختصت بها طائفة من الناس، وعني بها علماء وأدباء، وبذا اتسعت دائرة غريب القرآن الكريم.
* فمسائل نافع بن الأزرق بلغت قريبا من مائتي مسألة من غريب القرآن، أما ما ورد مثلا في كتاب معاني القرآن الكريم للفراء فعدده أكثر مما ورد في مسائل نافع بن الأزرق.
* وما ورد في كتاب حسنين مخلوف (كلمات القرآن) فهو أكثر بكثير مما ورد في ذينك المصدرين.
هذا التفاوت الكبير وهذا البون الشاسع في الغريب من عصر إلى عصر مرده إلى تلك الأسباب سالفة الذكر.
انتهج علماء غريب القرآن في ترتيب الألفاظ التي انتخبوها نهجين رئيسين وهما:
الأول– وفق ترتيب الآيات في المصحف، وذلك مثل مجاز القرآن لأبي عبيدة، وتفسير غريب القرآن لابن قتيبة، وغريب القرآن لعبد الله بن يحيى بن المبارك، وبهجة الأريب في بيان ما في كتاب الله العزيز من الغريب للمارديني، والتبيان لابن الهائم وهو هذا الكتاب موضوع التحقيق.
الثاني– حسب الترتيب الهجائي، وهذا الأخير كان ذا طرائق قددا:

أ- فمنهم من راعى آخر الكلمة، فرتب على أساسه، وذلك وفق ترتيب الجوهري للصحاح ومن تبعه كابن منظور في «لسان العرب» والصّغاني في «العباب» والفيروزآبادي في «القاموس المحيط» . وقد سار على هذا النهج مُحَمَّد بن أبي بكر الرّازي، يقول حاجي خليفة عن كتابه هذا: «ورتب ترتيب الجوهري» وقد قام بتحقيقه الدكتور عبد الله عبد الرحمن بكلية الآداب بجامعة الكويت.

والمعروف أن الرازي هذا اختصر الصحاح محافظا على ترتيبه وسماه مختار الصحاح.

ب- ومنهم من لاحظ أول الكلمة، وهؤلاء لم يسيروا وفق منهج معين:

1- فمنهم من راعى جذر الكلمة مثل الهروي في كتابه الغريبين.

2- ومنهم من نظر إلى الشكل الخارجي للكلمة دون مراعاة لأصلها الاشتقاقي كالسجستاني في كتابه غريب القرآن.

وهذا الكتاب هو الذي يعنينا من بين كتب غريب القرآن لأن ابن الهائم اتخذه أساسا لكتابه التبيان.

وفيما يلي وقفة مع منهجه في ترتيب الغريب الذي أورده في كتابه.

مع السجستاني في ترتيب غريب القرآن:

المنهج الذي اتبعه السجستاني في عرض غريب القرآن أنه رتب الألفاظ القرآنية ترتيبا هجائيّا وفق الشكل الخارجي للكلمة دون مراعاة للأصل الاشتقاقي، فمثلا:

تُدْهِنُ ورد في التاء وفَيُدْهِنُونَ في حرف الياء. ومراعاة الأصل الاشتقاقي يقتضي أن يكونا في حرف الدال (دهن) .

ثم قسم كل حرف إلى ثلاثة أقسام: المفتوح يليه المضموم وينتهي بالمكسور، ففي باب الكاف المفتوحة مثلا يضع كَبُرَ (الصف 3) ويضع الْكُبَرِ (المدثر/ 35) في باب الكاف المضمومة ويضع كِبْرٌ (غافر 56) في باب الكاف المكسورة، ثم يرتب كل صنف (المفتوح والمضموم والمكسور) وفق ترتيبه في المصحف، فما يبدأ مثلا بالراء المكسورة في سورة آل عمران يسبق ما يبدأ بالراء المكسورة في سورة النساء، وما يرد في الآية العشرين مثلا بإحدى السور يسبق ما يرد في الثلاثين من السورة نفسها.